

مقدمة

قد نحسن الظن لو قلنا إن شباب المسلمين وشيوخهم ، قد انقطعوا ، منذ جيل أو جيلين ، عن الفخر بماض لم يصنعوه ؛ وعن الأسى والحسرة لحاضر يزعمون عجزهم عن إصلاحه ؛ وعن الأمل العريض في مستقبل يلقون عبء تحقيقه على الأجيال بعدهم . ذلك أنهم كانوا ينتظرون إحدى المعجزات لكي تقودهم إلى الحرية عفواً ، وإلى المجد دون أن يبذلوا من ذات أنفسهم شيئاً .

واليوم يوشك القوم أن يعترفوا أن النهضة لا تأتي دون جهد ، وإنما تنبعث من أعماق الأمة ، وتصنع بأيدي أبنائها وعلى عيونهم ، فإن البكاء لا يجي الميت ، والأنين لا يرد المجد الضائع . ولهم بعد ذلك أن يدركوا أن تدهورهم أبعد عهداً عما يظنون . إنهم يرجعونه عادة إلى زمن الحروب الصليبية أو هيجوم التتار على بغداد ، مع أنه بدأ في الحقيقة مع ظهور النظام الماسكي الاستبدادي ، وما صحبه من انقسام المسلمين إلى فرق ومذاهب دينية متناحرة ، تزعم كل فرقة منها أنها على الحق وحدها . ولهم أن يدركوا — لو شاءوا — أن مما عجل بركودهم أنهم أفسحوا صدورهم لنوع غريب من التصوف جاءتهم عناصره من الغرب والشرق على حد سواء ، فحجب عنهم عقيدة التوحيد ، واتجه بهم قدماً نحو لون من الشرك الخفي أو الصريح . ثم زاد بهم البلاء حدة والتدهور عنفاً ، رغم تلك اليقظات العابرة التي كانت توحى إليهم أنهم ما زالوا بخير .

إن تفهم المسلمين ، الذي بدأ منذ عصور متطاولة ، قد أدرك غايته في القرن الثامن عشر الميلادي . وعندئذ أحس هؤلاء أنهم قد تدهوروا حقيقة . وما كانوا يستطيعون ألا يشعروا بهذا التدهور ؛ فإن جيوش الغرب عادت مرة أخرى توقظهم من أحلامهم وغرورهم ، وتنبيههم أنهم لم يعودوا ممثلي الحضارة الإنسانية التي ألقت إليهم مقاليدها طيلة أربعة أو خمسة قرون . وهكذا كانت الكوارث الكبرى ، التي نزلت بمختلف الأقطار الإسلامية في العصر الحديث ، هي التي كشفت لأهلها عن مقدار ما انحدروا إليه ، فحاول هؤلاء الوقوف أمام موجة الزحف الأوروبي ،

وقام مصلاحوهم ينهبونهم إلى الخطر الجلل الذي يوشك أن يطمس حضارتهم وينتزع من أيديهم ما بقي فيها .

لكن تلك الوجهة كانت أقوى من أن تقف أمامها أمم منحلة متخاذلة لا تربطها رابطة قوية من الأخوة أو التعاون ؛ فسقط كثير منها في حوزة الغرب ، واستمر الزحف الأوروبي في عنفوانه إلى عهد قريب . ولم يبطيء من سيره لكي يقف ثم ينحسر إلا بعد أن ظهرت ثمرة الجهود التي بذلها كبار المصلحين من أمثال صاحب الحركة الوهابية ، وجمال الدين الأفغاني ، وأحمد خان ، ومحمد عبده ، وآخرون كثيرون . فدبت روح المقاومة في تلك الشعوب الخاملة ، وقامت الثورات متتابعة على حكم الغرب ، وعلى الخونة من أبناء الدول الإسلامية أو أمرائها .

وقد أكدت هذه الثورات المتلاحمة أن بقظة المسلمين شاملة ، وأنها تسير في الاتجاه الصحيح ؛ لأنها ليست قاصرة على الإصلاح الديني وحده ، ولا على الإصلاح السياسي وحده ، ولا على النهضة الاقتصادية وحدها ، ولا على النهضة العلمية وحدها ؛ وإنما تبسط ظلمها على مختلف هذه النواحي الاجتماعية الرئيسية في كل دولة جديدة بالحياة . ولا ريب في أن تعدد نواحي الإصلاح كفيل بتحقيق الأمل في المستقبل الذي تبنيه الأجيال الحاضرة في مختلف الأقطار الإسلامية . وما يؤذن بأن هذا الأمل ليس حلما يستحيل تحقيقه هو ما نراه من التجاوب العميق اليوم بين المسلمين إن في المشرق ، وإن في المغرب .

وهذا التجاوب هو مظهر الرابطة الإسلامية التي بدأت تتأكد من جديد بين المسلمين في مختلف بقاع الأرض ، بعد أن كادت تنفصم عروتها بسبب ضروب الاستبداد السياسي والروحي التي استسلم لها المسلمون ، أو اضطروا إلى الاستسلام لها ، منذ أن غابت عن قلوبهم الأصول الدينية الأولى التي حجبها جدل الفقهاء في العقائد وتمنتهم وتشددهم وغلوهم في التفريع والتشريع ، والتي صمت آذانهم عن سماع ندائها بسبب صخب الدفوف والمزامير في حلقات أهل التصوف .

ولا أدل على نهضة الأمة الإسلامية من أنها أخذت تفسح صدرها لكل رأي حر وجملة تؤمن أن العلم ليس عدواً للدين ؛ بل هو حليفه وناصره .